الحج في الجاهلية

قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أيام مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

بعد أن فرغ خليل الله إبراهيم عليه السلام من بناء الكعبة المشرفة أمره الله سبحانه وتعالى بالحج، وسار العرب على تلك الشعيرة حتى بعد انحرافهم عن توحيد الله وإشراكهم به.

تعددت بيوت الأرباب التي كان يحج إليها العرب في شهر ذي الحجة وعدم حصر ذلك في المسجد الحرام، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أ – **بيت اللات في الطائف**[١]: وهو عبارة عن صخرة مربعة بنت عليه ثقيف بيتاً، ويبدو أنه بُني على طراز البيت العتيق.

ب – **كعبة غطفان**[٢]: واسمه بس: بيت لغطفان بن سعد بن قيس عيلان كانت تعبده. بناه ظالم بن أسعد بن ربيعة بن مالك بن مرة بن عوف، لما رأي قريشا يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة، فذرع البيت. ونص العباب: وأخذ حجرًا من الصفا وحجرًا من المروة، فرجع إلى قومه، وقال: يا معشر غطفان، لقريش بيت يطوفون حوله والصفا والمروة، وليس لكم شيء، فبنى بيتا على قدر البيت، ووضع الحجرين فقال: هذان الصفان والمروة فاجتزئوا به عن الحج فأغار زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي، فقتل ظالما، وهدم بناءه"[٣].

ج – **الكعبة اليمانية (ذو الخلصة)**[٤]: عبارة عن مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج، وفي عهد الدولة السعودية الأولى عاد الناس لتقديسها فهدمت في عهد الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود. فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة». وذو الخلصة: طاغية دوس التي كانوا يعبدون في

---

[١] الدكتور جواد علي (ت ١٤٠٨هـ)، «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، «الفصل الثالث والأربعون: يثرب والطائف يثرب» (٧/ ١٢٨).

[٢] نفس المصدر السابق.

[٣] محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، «تاج العروس من جواهر القاموس»، «بيت لغطفان بن سعد بن قيس عيلان» (١٥/ ٤٥٣).

[٤] محمد سليمان الطيب، «موسوعة القبائل العربية»، «ذو الخلصة صنم خثعم» (٧/ ٨٠٤).

الجاهلية[٥].

د – **كعبة نجران**[٦]: كانت لبني الحارث بن كعب وربما بنيت على هيئة الكعبة المشرفة وكان لها قبة من أدم من ثلاثة مئة قطعة من الجلد.

أما ما يخص الحج في الجاهلية للبيت الحرام: فعند حضور العرب موسم سوق (عكاظ) والذي يعقد في شهر ذي القعدة، وعند انتهائه من أراد منهم الحج عليه أن يذهب إلى (مجنه) إلى ظهور هلال ذي الحجة، ثم يرتحل إلى (ذي المجاز) ومنه إلى (عرفة)، فإذا كان يوم التروية تزودوا بالماء وارتفعوا إلى (عرفة)، هذا بالنسبة للتجار الذين كانوا يأتون هذه المواضع للتجارة.

أما بالنسبة لغيرهم فقد يقصدون الحج في أي وقت شاءوا ثم يذهبون إلى عرفة للوقوف موقف عرفة يقصدها (الحلة)[٧]، أما (الحمس)[٨]: فيقفون بنمرة ويفيضون من المغمس ثم يلتقون جميعاً بمزدلفة للإفاضة.

ومن طقوسهم إذا خرج أحدهم من بيته يريد الحج تقلد قلادة من لحاء السمر دلالة على ذهابهم للحج فيأمن حتى يأتي أهله.

يبدأ حجهم بالإهلال، فكانوا يهلون عند أصنامهم ويلبون إليها، فإذا انتهوا من ذلك قدموا مكة. كما أنهم يطوفون حول الرجمات والأصنام والذبيحة التي تقدم للآلهة، وكان يسمى الطواف بـ (الدوار) وكان سبعة أشواط. وكان العرب يطوف منهم الشخص ويده مربوطة بيد إنسان آخر بحبل أو خيط أو منديل وغيرها، يفعلونه نذراً أو حتى لا يفترقا، وقد روي أن رسولنا الكريم رأى ذلك فقطع بيده ذلك الرباط، وقد نُهي عن ذلك في الإسلام. يكون الطواف بالبيت الحرام بأحذيتهم لا يطئون أرض المسجد تعظيماً لها إلا أن يكون الحاج فقيرًا حافياً، وكان (وليد بن المغيرة) أول من خلع حذاءه عند دخول الكعبة تعظيماً لها فخلع بعده الناس أحذيتهم.

ويصنف الطائفون في البيت الحرام إلى صنفين، صنف يطوف في ثيابه وهم الحُمس، وصنف يطوف عارياً وهم (الحُل)، وكان القصد من طرح ثيابهم هو طرح ذنوبهم معها؛ لأن لديهم اعتقاد أن لا يعبدوا الله في ثياب أذنبوا بها وكانت تسمى ثيابهم تلك (اللقى)، وفي رواية أن من يطوف بثيابهم منهم (يضرب)

---

[٥] أخرجه البخاري في صحيحه، «باب تغيير الزمان حتى يعبدوا الأوثان» (٩/ ٥٨).

[٦] أبو المنذر هشام بن محمد أبي النضر ابن السائب ابن بشر الكلبي (ت ٢٠٤هـ)، «كتاب الأصنام»، «كعبة بنجران» (ص٤٤).

[٧] الحلة: أو الحُل هم سائر العرب أو القبائل.

[٨] الحُمس: قريش وولدهم.

وتنزع منه ثيابه.

أما (نساء) (الحُل) فيخضعن لهذه القاعدة نفسها، وقيل هناك من تستر نفسها بيديها من الأمام والخلف، وهناك من تضع سيوراً لستر نفسها ومنهن من يطفن ليلاً.

مدة طوافهم أسبوع، وكانوا يمسحون الحجر الأسود ويسعون بين الصفا والمروة.

***

التلبية

- **تلبية قريش لإساف:** (لبيهم اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك)[٩].

وذكر أهل الأخبار: أن "عمرو بن لحي" كان أول من غير تلبية "إبراهيم"[١٠].

وكانت: "لبيك لا شريك لك. لبيك"، فجعلها: "لبيك اللهم لبيك، إلا شريك هو لك، تملكه وما لك"، وقد كان "إبليس" قد ظهر له في صورة شيخ نجدي على بعير أصهب، فسايره ساعة، ثم لبى إبليس، فلبى "عمرو" تلبيته حتى خدعه. فلباها الناس على ذلك[١١].

- **تلبية من نسك للعزى:** (لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، ما أحبنا إليك)[١٢].
- **تلبية من نسك مناة:** (لبيك اللهم لبيك، لبيك لولا أن بكراً دونك يبرك الناس ويهجرونك، ما زال حج ثج يأتونك إنا على عدوائهم من دونك)[١٣].

---

[٩] محمد بن إسحاق المطلبي الشهير بـ ابن إسحاق (ت ١٥١ هـ). «سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي» «أول ما ابتدىء به رسول الله من النبوة» (ص١٢٠).

[١٠] الدكتور جواد علي (ت ١٤٠٨هـ)، «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، «عبادة الأصنام:» (١١/ ٧٦).

[١١] نفس المصدر السابق.

[١٢] أبو جعفر، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)، «المحبر» «السنن التي كانت الجاهلية سنتها فبقّى الاسلام بعضها وأسقط بعضها» (ص٣٠٩).

[١٣] أبو جعفر، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)، «المحبر»، «السنن التي كانت الجاهلية سنتها فبقّى الاسلام بعضها وأسقط بعضها» (ص٣٠٩).

- **تلبية من نسك لهبل:** "لبيك اللهم لبيك". إننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح"[١٤].
- **جهار:** فقد كان من أصنام هوازن وموضعه بعكاظ، وسدنته آل عوف النصريون، ومعهم محارب فيه. وكان في أسفل أفطح. وكانت تلبية من نسك لجهار: "لبيك، اللهم لبيك، لبيك، اجعل ذنوبنا جبار. وأهدنا لأوضح المنار. ومتعنا وملنا بجهار"[١٥].
- **وأما "ذريح" "ذرح":** فكان لكندة بالنجير من اليمن ناحية حضرموت، يظهر أنها كانت تحج إليه، وأن له بيتا يقصد، بدليل ورود تلبية من نسك إليه، وهي: "لبيك اللهم لبيك، لبيك، كلنا كنود، وكلنا لنعمة جحود. فاكفنا كل حية رصود"[١٦].
- **وكانت تلبية من نسك لشمس:** "لبيك، اللهم لبيك، لبيك، ما نهارنا نجره، إدلاجه وحره وقره، لا نتقي شيئا ولا نضره، حجا لرب مستقيم بره"، وكانت تلبية من نسك لمحرق: "لبيك، اللهم لبيك، لبيك حجا حقا، تعبدا ورقا"،
- **وكانت تلبية من نسك لود:** "لبيك اللهم لبيك، لبيك، معذرة اليك"[١٧].
- **كانت تلبية قريش:** لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، تملكه وما ملك.
- **وكانت تلبية كنانة:** لبيك اللهم لبيك، اليوم يوم التعريف، يوم الدعاء والوقوف.
- **وكانت تلبية بني أسد:** لبيك اللهم لبيك، يا رب أقبلت بنو أسد، أهل التواني والوفاء والجلد إليك.
- **وكانت تلبية بني تميم:** لبيك اللهم لبيك، لبيك عن تميم، قد تراها قد أخلقت أثوابها وأثواب من وراءها، وأخلصت لربها دعاءها.
- **وكانت تلبية ثقيف:** لبيك اللهم إن ثقيفا قد أتوك: وأخلفوا المال وقد رجوك.
- وكانت تلبية هذيل: لبيك عن هذيل قد أدلجوا بليل، في إبل وخيل.
- **وكانت تلبية ربيعة:** لبيك ربنا لبيك، لبيك إن قصدنا إليك. وبعضهم يقول: لبيك عن ربيعة،

---

[١٤] نفس المصدر السابق.

[١٥] أبو جعفر، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)، «المحبر» «السنن التي كانت الجاهلية سنتها فبقّى الاسلام بعضها وأسقط بعضها» (ص٣٠٩).

[١٦] نفس المصدر السابق.

[١٧] نفس المصدر السابق.

سامعة لربها مطيعة.

- **وكانت حمير وهمدان يقولون**: لبيك عن حمير وهمدان والحليفين من حاشد والهان.
- **وكانت تلبية الأزد**: لبيك رب الأرباب، تعلم فصل الخطاب، لملك كل مثاب.
- **وكانت تلبية مذحج**: لبيك رب الشعرى، ورب اللات والعزى.
- وك**انت تلبية كندة وحضرموت**: لبيك لا شريك لك، تملكه، أو تهلكه، أنت حكيم فاتركه.
- **وكانت تلبية غسان**: لبيك رب غسان، راجلها والفرسان.
- **وكانت تلبية بجيلة**: لبيك عن بجيلة في بارق ومخيلة، و
- **كانت تلبية قضاعة**: لبيك عن قضاعة، لربها دفاعة، سمعا له وطاعة.
- **وكانت تلبية جذام**: لبيك عن جذام، ذوي النهى والأحلام.
- **تلبية "قيس عيلان" كانت على هذا النحو**: "لبيك اللهم لبيك، لبيك أنت الرحمن، أتتك قيس عيلان، راجلها والركبان.
- **وأن تلبية عك والأشعرين، كانت**:

نحج للرحمان بيتا عجبا ... مستترا مغببا محجبا

***

الإفاضة من عرفات

ومن مناسك حج أهل الجاهلية الوقوف بـ"عرفة"، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجة ويسمى "يوم عرفة" ومن "عرفة" تكون "الإجازة" للإفاضة إلى "المزدلفة"، ومن "المزدلفة" إلى "منى" ويمضي الحجاج ليلتهم ليلة العاشر من ذي الحجة، ومنه تكون الإفاضة عند الشروق إلى منى، وكان الذي يتولى الإجازة رجلا من تميم يقال له "صوفة"، ثم انتقلت إلى "صفوان" من تميم كذلك، وكان (قصي بن كلاب) قد أوقد نارًا على المزدلفة حتى يراها من دفع من عرفة.

وفي منى ترمى الجمرات ثم تنحر الأضاحي. رمي الجمرات كانت من شعائر الحج المعروفة في (المحجات) الأخرى من جزيرة العرب. ويرجع مبدأ رمي الجمرات إلى (عمرو بن لحي)، يذكر أنه جاء بسبعة أصنام فنصبها بمنى عند مواضع الحجرات، وعلى شفير الوادي ومواضع أخرى، وقسم عليها حصى الجمار، إحدى وعشرين حصاة، يرمى كل منها بثلاث جمرات ويقال للوثن حين يرمى أنت أكبر من فلان الصنم الذي يرمى.

وكان أمر الإفاضة بيد رجل من أسرة تناوبت هذا العمل أباً عن جد، وقد اشتهر منهم (عميلة بن خالد العدواني) أبي سيارة كان يجيز الناس من مزدلفة إلى منى أربعين سنة، حيث كان يركب حماراً أسود وينظر إلى أعالي جبل (ثبير) فإذا شاهد أشعة الشمس الأولى نادى: أشرق ثبير، كيما نغير ثم يجيز لهم الإفاضة.
ومن الشعائر المتعلقة بمنى (العتائر) أي النحر في الإسلام، كانوا ينحرون على الأنصاب وعلى مقربة من الأصنام، ثم توزع على الحاضرين ليأكلوا جماعة أو تغطى للأفراد، وقد تترك لكواسر الجو وضواري البر فلا يصد عنها أي إنسان ولا سبع.
تبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر؛ لأنها أسمى مظاهر العبادة في الأديان القديمة. وكانوا يقلدون هديهم بقلادة أو نعلين يعلقان على رقبة الهدي إشعاراً للناس أن الحيوان هدي فلا يجوز الاعتداء عليه.
وبعض أهل الجاهلية يسلخون جلود الهدي ليأخذوها معهم، ويتفق هذا مع لفظ (تشريق) التي تعني تقديم اللحم، ومنه سميت أيام التشريق، وهي ثلاثة أيام بعد يوم العتائر؛ لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها أي تنشر في الشمس. لا يحل للحجاج في الجاهلية حلق شعورهم أو قصها طيلة حجهم وإلا بطلت حجتهم. وعندما يحل لهم القص فإنهم يقصون عند أصنامهم، وكان عرب اليمن يضعون الدقيق على رؤوسهم قبل الحلق، وعند الحلق يسقط الدقيق مع الشعر، فيجعلون ذلك الدقيق صدقة، فكان الناس يأخذونه ويرمون الشعر عن الدقيق. يجوز للحاج مغادرة منى في اليوم العاشر من ذي الحجة، ففي هذا اليوم يكمل الحاج حجه، ولكن منهم من يمكث بهذا الموضع إلى اليوم الثالث عشر، وذلك ابتهاجاً بأيام العيد. بعد أن يفرغوا من مناسكهم يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم فيقول بعضهم: كان أبي يطعم الطعام، أبي يضرب بالسيف.. إلخ، وكان ذلك عند الجمرة أو عند البيت العتيق، لذلك نزل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

فمنذ أن بوَّأ اللهُ تعالى لإبراهيم مكان البيت، قرَن ذلك بنهيٍ وأمرٍ: أمّا النهي فلإبراهيم – داعية التوحيد– أن يُشرك بالله شيئًا، وكأنَّ في الآية توبيخًا لمن أشرك من أهل هذا البيت بعد ذلك، أي: هذا كان الشرط على أبيكم فمَنْ بعدُ، وأنتم لم تَفُوا به؛ بل أشركتم.
وأما الأمر فبتطهير هذا البيت المعظَّم من كلّ كفرٍ وبدعةٍ، ووثن وصنم، ودمٍ ونجس.
وقد أتمَّ إبراهيم عليه السلام كلماتِ ربه، ثم أذَّن في الناس أن يلبُّوا نداء الله، وتقاطَر الخَلْق من كلّ فجٍّ عميق يحجّون بيت الله ويرفعون ذِكره، فكانوا على ذلك، ثم تطاولَت بالناس

عهودٌ فترَتْ فيها النُّبُوات، وخفتَت فيها أنوار الرسالات، فراجَع الناس أهواءهم، وزيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم، فزاغوا عن شعائر الله التي أنزلها، وحرَّفوا مناسكَ إبراهيم التي عُلِّمَها، فإذا البيت الذي وضعه الله للتوحيد قد صار مثابة للشرك، وإذا الكعبة التي رَفَعَ قواعدَها إبراهيمُ قد ارتفع فوق ظهرها (هُبَل) الطاغية، وطاف الناس به يصيحون: «اعْلُ هُبَلُ، اعْلُ هُبَلُ»، وصار ما صار من تحريف وتبديل في مواقيت الحج ومناسكه وأركانه، وأضيفت بدع شتَّى حرَّمَت حلالًا وأحلَّت حرامًا، في كلّ منسك من مناسك الله تقريبًا.

***

مواقيت الحجّ في الجاهلية

عبثَتْ بها أيدي الجاهلية، فابتدعوا ما يسمَّى بالنسيء، يَحْرِفون به الشهور عن مواقيتها، فيؤخِّرون ويقدِّمون، ويحلُّون ويحرِّمون، قال مقاتل بن سليمان: «كان الحُمْس يستحِلُّون أن يُغِير بعضُهم على بعض في الأشهر الحُرم وغيرها؛ وذلك أنَّ أبا ثمامة جنادة بن عَوْف من بني كنانة كان يقوم كُلّ سنة في سوق عكاظ، فيقول: (ألَا إنِّي قد أحلَلْتُ المحرَّم وحرَّمتُ صَفَرًا، وأحللتُ كذا وحرَّمتُ كذا، ما شاء). وكانت العرب تأخذ به، حتى قال قائلهم يفخر بذلك:

ألَسْنا الناسِئينَ على مَعَدٍّ شهورَ الحِلِّ نجعلُها حَراما

وقال الآخر:

نَسَؤُوا الشّهورَ بها وكانوا أهلَها مِنْ قبلِكم والعزُّ لم يتحوَّلِ

فأنزل اللَّه: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧]. وأنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ [المائدة: ٢]. يقول: لا تَستحِلُّوا القتل في الشهر الحرام. ولا يخفى ما يُسبِّبه ذلك النسيء من خلل في أسماء الشهور وترتيبها،

حتى صاروا يدورون بالحج على الشهور كلّها، ويقولون: «إنْ أخطأنا موضعه في عام، أصبناه في غيره»[١٨].

قال مجاهد: «كانوا يحجُّون في ذي الحجة عامين، وفي المحرم عامين، ثم حجوا في صَفر عامين. وكانوا يحجون في كلّ سنة في كلّ شهر عامين»[١٩].

وكما أضاعوا شهر الحج، أضاعوا يومه، حتى كان بعضهم يقول: «الحج اليوم»، ويقول بعضهم: «الحج غدًا». وأضاعوا معالم نسُكه فكانوا يقفون مواقف مختلفة، يتجادلون كلّهم، ويدّعِي أنّ موقفه موقف إبراهيم عليه السلام؛ كان بعضهم يقف بعرفة، وبعضهم بالمزدلفة، وكان يحج بعضهم في ذي القعدة، وبعضهم في ذي الحجة. وإذا اجتمعوا بـ(منى) قال هؤلاء: «حجُّنا أتمُّ مِن حجِّكم»، وقال هؤلاء: «حجُّنا أتمُّ مِن حجِّكم»[٢٠].

فكانوا على ذلك حتى بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم، فحجّ بالناس من السنة العاشرة، فوقف بعرفة، فقال: «أيها الناس، إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خَلَقَ اللهُ السموات والأرض فَلَا شَهْرَ يُنْسَأ»[٢١]. وقطع اللهُ مخاصمتهم في الحج بما أعلم به نبيه صلى الله عليه وسلم من المناسك، وأنزل: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. فبطل الجدال في الحج، واستقام أمره على وقتٍ واحد، ومناسك متّفقة، لا تنازع فيها ولا مِراء.

***

القلائد

كان في الجاهلية مَن أراد الحج مِن غير أَهْل الحَرم يقلِّدُ نفسه من الشَّعْر والوَبَر فيأمن به إلى مكة، وإن كان من أَهْل الحرم قلَّد نفسه وبَعِيره من لحاء شجر الحرم فيأمن به حيث يذهب،

---

[١٨] أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، «معرفة السنن والآثار» «ما يكره من تسمية الصرورة وغيرها» (٧/ ٣٥٧).

[١٩] أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)، «تأويل قوله تعالى: {الحج أشهر معلومات}» «تفسير الطبري» (٤/ ١١٤ ط التربية والتراث).

[٢٠] نفس المصدر السابق.

[٢١] رواه أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت ٢٩٢ هـ)، «مسند البزار = البحر الزخار» «مسند ابن عباس رضي الله عنهما» (١١/ ١١).

فهذا في غير الأشهر الحُرم، فإذا كان الأشهر الحُرم لم يقلدوا أنفسهم ولا أباعرهم، وهم يأمنون حيثما ذهبوا، فذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ [المائدة: ٢]. قال مجاهد: (القلائد)، اللحاء في رقاب الناس والبهائم، أمْنٌ لهم.

وأمّا إحرامهم في الجاهلية؛ فقد كانوا يحرِّمون على أنفسهم إذا أحرموا أمورًا كثيرة لا ندري لها سببًا، والهدي المقلد بقلائد، تشعر أنه مما أهدي إلى بيت الله بـ"القلائد". فلا يجوز لأحد أن يتحرش به، أو أن يفك قلائده؛ لأن ذلك تجاوز على مال الله، وهو مال معلم عليه معروف بقلادته أنه من الهدي المخصص بالبيت. فإذا فكت قلادته سرق وحسب من أموال الناس الخاصة. والظاهر أن من الجاهليين من كان يتطاول على أموال البيت، فيستولي على الهدى، ويفك القلائد، ويسطو بذلك على الإبل المقلدة والبقر المقلد، وذلك كما يظهر من الآية ﴿لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد﴾[المائدة: ٢]. ومنهم من كان يسطو على الهدي قبل وصوله موضعه من البيت.

وكانوا يهدون الإبل والبقر إلى بيوت أصنامهم. وقيل للناقة أو البقرة أو البعير تهدى إلى مكة "البدنة". وقد أشير إلى البدن في القرآن، فورد: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾ [الحج: ٣٦]. تهدى إلى بيت الله فلا تركب.

وكان قومٌ من الأعراب يحجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون: (نحن المتوكلون)، وربما قال قائلهم: نحجُّ بيتَ الله ولا يُطعِمُنا؟! فإذا قَدِمُوا مكة سألوا الناس، فقال الله: تزوّدوا ما يَكُفُّ وجوهَكم عن الناس، وكان منهم قوم إذا أحرموا ومعهم أزودة رموا بها، فكانوا يبقون عالةً على الناس، فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[٢٢].

وكانت لهم أسواقهم التي يتبايعون فيها قبل الحج وبعده، فإذا أحرموا بالحجّ حرَّموا على أنفسهم البيع والشراء حتى يقضوا مناسكهم، يلتمسون البِرّ بذلك، ويقولون: (أيام ذِكر)، فأنزل الله:

---

[٢٢] أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)، «تفسير الطبري» «قوله تعالى: {الحج أشهر معلومات}» (٤/ ١١٤ ط التربية والتراث)

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]. فأعلمهم جلّ ثناؤه أن لا بِرّ في ذلك، وأنّ لهم الْتِماسَ فضله بالبيع والشراء.

وكانوا يرون أنّ مِن أفجرِ الفجور في الأرض أن يُحرِم الرجل بالعمرة في أشهر الحج، ويقولون: إذا برا الدَّبَر، وعَفَا الوَبَر، وانسلخ صَفر، حلَّت العمرة لِمَن اعتمَر.

يعنون: إذا برأ دَبَرُ الإبل التي كانوا شهدوا الموسم وحجوا عليها وعفَا وبَرُها. فأنزل الله التمتع بالعمرة تغييرًا لِما كان أهل الجاهلية يصنعون، وترخيصًا للناس، فقال: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

قال ابن عباس: من أحرم بالعمرة في أشهر الحج، فما استيسر من الهدي. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دخلَت العمرة في الحج إلى يوم القيامة»[٢٣]. فاعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عُمَرَهُ كلَّها في ذي القعدة[٢٤].

***

تلبية الجاهلية

كانت خليطًا عجيبًا من شِركٍ وتوحيدٍ، روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، قال: فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ويلكم، قَد قَد» أي: حسبكم لا تزيدوا فيقولون: إلّا شريكًا هُوَ لك، تَمْلِكُه وما مَلَكَ يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت» [٢٥].

وربما كان لكلّ قبيلة تلبية خاصّة يذكرون فيها آلهتهم مع الله، فكانت تلبيةُ ثَقِيف: (لبيك اللهم لبيك، هذه ثَقِيفٌ قد أَتَوك، وخَلَّفُوا أوثانَهُم وعظَّمُوك... عُزَّاهُمُ واللاتُ في يديك، دانَتْ لكَ الأصنامُ تعظيمًا إليك، قد أَذْعَنَتْ بسلْمِها إليك، فاغفِرْ لها فطالما غَفَرْت)[٢٦].

---

[٢٣] أخرجه أبو داود في سننه، «باب في إفراد الحج» (٢/ ١٥٢ ت محيي الدين عبد الحميد). وصححه الألباني.

[٢٤] أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ). «تفسير الطبري»، «هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام» (٢١/ ٢٩٢).

[٢٥] أخرجه مسلم في صحيحه، «باب التلبية وصفتها ووقتها» (٤/ ٧).

[٢٦] محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي، الشهير بقُطْرُب (ت ٢٠٦ هـ)، «الأزمنة وتلبية الجاهلية» «تلبيات العرب» (ص٣٩).

وكانت عَكّ –قبيلة من اليمن– إذا بلغوا مكة، يبعثون غلامَيْنِ مملوكَيْنِ أسودَيْنِ عُريانَيْنِ! يسيران أمامهم على جمل، فلا يزيدان على أن يقولا: (نحن غُرابَا عَكّ!)، وإذا نادَى الغلامان بذلك صاح مَن خلفهما مِن عَكّ: (عَكٌّ إليك عَانية، عبادك اليمانية، كيما نحج الثانية، على الشداد الناجية)[٢٧].

وفي ذلك أنزل الله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣١].

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: كان الناس يحجون وهم مشركون، فكانوا يسمونهم حنفاء الحجاج، فنزلت: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[٢٨].

قال ابن عباس: حجاجًا لله غير مشركين به، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين[٢٩].

وكان منهم مَن يحجّ مُصْمِتًا لا يتكلم حتى يفرغ مِن حجّه، يرى ذلك قُربة لله تعالى، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقال: «لا صُمَاتَ يومٍ إلى الليل».

قال الأزرقي: فلم تزل تلك تلبيتهم حتى جاء الله بالإسلام، ولبَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم تلبية إبراهيم الصحيحة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، فلبّاها المسلمون[٣٠].

***

عرفة في الجاهلية

عن عبد الله بن أبي نجيح، قال: كانت قريش تقول: نحن بنو إبراهيم وأهل الحَرَم وولاة البيت، فلا تعظِّمُوا شيئًا من الحِلّ كما تعظمون الحَرَم؛ فإنكم إن فعلتم ذلك استخفَّت العرب بحَرَمِكم،

---

[٢٧] أبو جعفر، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)، «المحبر» «السنن التي كانت الجاهلية سنتها فبقّى الاسلام بعضها وأسقط بعضها» (ص٣٠٩).

[٢٨] أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، «تفسير ابن أبي حاتم» «قوله تعالى: حنفاء لله غير مشركين به» (٨/ ٢٤٩١).

[٢٩] نفس المصدر السابق.

[٣٠] أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي [ت نحو ٢٥٠ هـ]، «حج أهل الجاهلية وإنساء الشهور ومواسمهم وما جاء في ذلك». «أخبار مكة – الأزرقي» (١/ ١٧٩).

وقالوا: قد عظَّمُوا من الحِلّ مثل ما عظموا من الحَرم، فتركوا الوقوف على عرفة، والإفاضة منها، وهم يعرِفون ويقرُّون أنها من المشاعر والحج ودِين إبراهيم، ويقرُّون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يُفيضوا منها، إلّا أنهم قالوا: نحن الحُمْس أهل الحَرم، فليس ينبغي لنا أن نَخرج من الحَرم ولا نعظِّم غيرَه[٣١].

وقيل: كانوا لا يخرجون من الحرم خشية أن يُقْتَلوا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقف مع قريشٍ والحمسِ في طرف الحرم، وكان يقف مع الناس بعرفة.

قال جبير بن مطعم: أَضْلَلْتُ بعيرًا يوم عرفة، فخرجتُ أقصُّه وأتبعه بعرفة، إِذْ أبصرت محمدًا بعرفة، فقلتُ: هذا من الحمس، ما يُوقفه هاهنا؟! فعجبتُ له. فكانوا على ذلك حتى أنزل الله -عزّ وجل- فيهم يأمرهم بالوقوف بعرفات: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، وكانوا يُفيضون من عرفات قبل غروب الشمس، ويفيضون من جَمْعٍ -مزدلفة- إذا طلعَت الشمس، فخالف النبيُّ صلى الله عليه وسلم في الإفاضة[٣٢].

***

الإفاضة

كانوا يُفيضون من عرفات قبل غروب الشمس، ويفيضون من جَمْعٍ إذا طلعَت الشمس، فخالف النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك كُلَّه؛ عن المسور بن مخرمة قال: خطبَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفات فقال: «ألَا وإنّ أهل الشرك والأوثان كانوا يَدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها، وإنّا ندفع بعد أن تغيب الشمس، وكانوا يَدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع

---

[٣١] أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي [ت نحو ٢٥٠ هـ]، «أخبار مكة - الأزرقي» «باب ما جاء في فتح الكعبة» (١/ ١٧٤).

[٣٢] نفس المصدر السابق.

الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها، وإنّا ندفع قبل أن تطلع الشمس، مخالفًا هَدْيُنَا هَدْيَ أهل الشرك»[٣٣].

دماء على الكعبة!

كانت العرب -ملوكها وعامّتها- يُهدون الذبائح إلى البيت الحرام، ويذبحونها على الأنصاب، وهي حجارة لا صورة لها، تُنصَب للعبادة والطواف، ثلاثمائة وستون حجرًا، منهم من يقول: ثلاثمائة منها لخزاعة.

قال ابن جريج: فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أَقبَل من البيت، وشرَّحوا اللحم وجعلوه على الحجارة[٣٤].

فلما جاء الله بالإسلام قال المسلمون: يا رسول الله، كان أهل الجاهلية يعظِّمون البيت بالدّم، فنحن أحقُّ أن نعظِّمه! فكأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يكره ذلك، فأنزل الله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾ وكانوا لا يأكلون من ذبائح نَسائكهم، فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فرخَّص للمسلمين، فمَن شاء أكلَ ومن شاء لم يأكل وقيل: كانوا لا يأكلون منها ترفُّعًا على الفقراء، فأمَر الله المسلمين بذلك لِما فيه من مخالفة الكفار، ومساواة الفقراء، واستعمال التواضع[٣٥].

***

طواف الجاهلية

كان لهم طواف بالكعبة وطواف بغيرها، أما الكعبة فقد جعلوا الأصنام في جوفها ومِن حولها، مئات الأصنام امتلأ بها البيت الحرام، لكلّ حيٍّ من العرب صنم أو صنمان؛ فمنها

---

[٣٣] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ - ٧٧٤ هـ)، «تفسير ابن كثير - ت السلامة» «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم» (١/ ٥٤٩).

[٣٤] أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)، «تفسير الطبري» «{حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به}» (٩/ ٤٩٢ ط التربية والتراث).

[٣٥] نفس المصدر السابق.

(مناف) وبه كانت تسمِّي قريشٌ عبدَ مناف، ومنها (شمس) وبِهِ سُمِّيَ عبد شمس، و(العُزَّى) صنم كان يُطلى بالدم، و(هُبَل) وهو أعظم أصنامهم، وكان على ظَهْر الكعبة، وقيل في جوفها.

قال الكلبي: «وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدًا من ذهب»[٣٦].

ومنها (الخَلَصَة) بأسفل مكة، كانوا يُلبسونها القلائد، ويُهدون إليها الشعير والحنطة، ويصبُّون عليها اللبن، ويذبحون لها، ويعلِّقون عليها بيض النعام، وكانت الأنصابُ حول الكعبة يذبحون لها.

والطواف من أهم طرق التعبد والتقرب إلى الآلهة. يؤدونه كما يؤدون الشعائر الدينية المهمة مثل الصلاة، وليس له وقت معلوم، ولا يختص ذلك بمعبد معين ولا بموسم خاص مثل موسم الحج، بل يؤدونه كلما دخلوا معبدا فيه صنم، أو كعبة أو ضريح، فهم يطوفون سبعة أشواط حول الأضرحة أيضا: كما يطوفون حول الذبائح المقدمة إلى الآلهة.

فالطواف إذن من الشعائر الدينية التي كان لها شأن بارز عند الجاهليين.

فيُروَى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد يومًا فطاف سبعًا، وقريش جلوس، فأقبل صلى الله عليه وسلم عليهم فأشار بيده إليهم وإلى أوثانهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ فلما ظهَر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة دخل المسجد، والأصنام منصوبة حول الكعبة، فجعل يطعن بعودٍ في عيونها ووجوهها، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾. ثم أمر بها فكُفِئَت على وجوهها، ثم أُخرِجَت من المسجد فحُرِّقَت[٣٧].

وفي ذلك قال راشد بن عبد الله السلمي:

قالتْ: هلمّ إلى الحديث، فقلت: لا ... يأبى الإله عليك والإسلامُ

---

[٣٦] أبو المنذر هشام بن محمد أبي النضر ابن السائب ابن بشر الكلبي (ت ٢٠٤هـ). «كتاب الأصنام» «كذلك فجعلوا» (ص٢٨).

[٣٧] نفس المصدر السابق.

أَوَ مَا رأيت محمدًا وقبيله ... بالفتح حين تكسر الأصنامُ

لرأيت نور الله أضحى ساطعًا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام[٣٨].

وكانوا يفرّقون في طوافهم بين الحُمْس والحِلَّة، و"الحمس" في رأي علماء اللغة التشدد في الذين سموا حمسًا؛ لأنهم كانوا يتشددون في دينهم، فكانوا إذا زوجوا امرأة منهم لغريب عنهم، أي لمن كان من الحلة اشترطوا عليه أن كل من ولدت له، فهو أحمسي على دينهم[٣٩].

وكانوا إذا أحرموا لا يأتقطون الأقط، ولا يأكلون السمن ولا يسلئونه ولا يمخضون اللبن، ولا يأكلون الزبد، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرما، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه، وإنما يستظلون بالأدم، ولا يأكلون شيئا من نبات الحرم[٤٠].

وكان يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم. وكانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الإسلام، فإن كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته فمنه يدخل ومن يخرج ولا يدخل من بابه.

وكانوا يقولون: لا تعظموا شيئا من الحل، ولا تجاوزوا الحرم في الحج فلا يهاب الناس حرمكم، ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة: يقفون به عشية عرفة، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة، ويفيضون منه إلى المزدلفة. فإذا عممت الشمس رءوس الجبال دفعوا. وكانوا يقولون: نحن أهل الحرم، لا نخرج من الحرم، ونحن الحمس. وكانوا إذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم، تسوروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح، ثم ينزلون في حجرتهم، ويحرمون أن يمروا تحت عتبة الباب. فهم يحرمون إذن أشياء لم تكن العرب تحرمها[٤١].

---

[٣٨] نفس المصدر السابق.

[٣٩] أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي [ت نحو ٢٥٠ هـ]، «حج أهل الجاهلية وإنساء الشهور ومواسمهم وما جاء في ذلك»، «أخبار مكة - الأزرقي» (١/ ١٧٩).

[٤٠] أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي [ت نحو ٢٥٠ هـ]، «أخبار مكة - الأزرقي» «حج أهل الجاهلية وإنساء الشهور ومواسمهم وما جاء في ذلك» (١/ ١٧٩).

[٤١] الدكتور جواد علي (ت ١٤٠٨هـ)، «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» «الحمس

وعلى كل حال الحمس لقب قريش ومن ولدت قريش، وكنانة وجديلة قيس. وهم: فهم وعدوان ابنا عمرو بن قيس عيلان، وبنو عامر بن صعصعة، ومن تابعهم في الجاهلية. هؤلاء الحمس. وإنما سموا لتحمسهم في دينهم أي تشددهم فيه، وكذا في الشجاعة فلا يطاقون، أو لالتجائهم بالحمساء وهي الكعبة"[٤٢].

وكان الرجل من العرب إذا حجّ لم يأكل إلّا طعام رجل من الحرم، ولم يطف إلا في ثيابه، وكان لكلّ شريف من أشراف العرب رجل من قريش، يقال له: (الحِرْمِيّ)، وكلّ واحد منهما حِرْمِيٌّ صاحبِه، وفي الحديث أن عِياض بن حِمَارٍ، كان حِرْمِيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية. قال الربيع: «وكان أهل المدينة وغيرُهم إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت إلا من ظهورها، وذلك أن يتسوَّرُوها، فكان إذا أحرم أحدُهم لا يدخل البيت إلا أن يتسوّره من قِبَل ظَهره[٤٣].

وأما الحِلَّة وهم مَن دونهم من العرب فكانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، وبعضهم يقول: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، وقيل: يخلعونها تفاؤلًا ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب. وربما طاف الرجال بالنهار والنساء بالليل، فتضع المرأة على قُبُلها خرقة أو نِسْعة أو شيئًا، فإن لم تجد شيئًا وضعت كفًّا على فَرْجِها وكفًّا على دُبُرها تتقي به الناس، وتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّه فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّه

كم من لبيب عقله يُضلُّه وناظر ينظر ما يملُّه.

وفيهم أنزل الله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وأنزل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

والطلس والحلة:» (١١/ ٣٥٧).

[٤٢] محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، «تاج العروس من جواهر القاموس» «حمس» (١٥/ ٥٥٥).

[٤٣] أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)، «تفسير الطبري» «{يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج}» (٣/ ٥٥٣ ط التربية والتراث).

قال الضحاك: كان ناسٌ من أهل اليمن والأعراب إذا حجوا البيت يطوفون به عُراة ليلًا فأمرهم الله أن يلبسوا ثيابهم، ولا يتعرّوا في المسجد[٤٤].

وذكروا أنّ من (الحِلَّة) مَن إذا دخلوا مكة تصدّقوا بكلّ حذاء لهم وثوب، وراحوا يلتمسون من ثياب (الحُمْس) إجارة أو إعارة؛ يقف أحدهم بباب المسجد، فيقول: من يُعِير ثوبًا؟ فإنْ أعاره أَحْمَسِيٌّ ثوبًا أو أَكْرَاه طاف به، وإن لم يُعِرْهُ ألقَى ثيابه بباب المسجد من خارج، ثم دخل الطواف وهو عريان، يبدأ بإساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعًا استلم الركن، ثم استلم نائلة، فيختم بها طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمسّ، فيأخذها فيلبسها، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عريانًا[٤٥].

فإنْ تكرَّم مُتكرِّم من رجلٍ أو امرأة من غير الحُمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحِلّ، ضُرِب وانتُزِعَت منه، فإنْ تُرِك حتى في الثياب، حرمَت عليه ثيابه تلك، فإذا فرغ من طوافه نزعها، ثم طرحها في المسعى بين إساف ونائلة، فلا يمسّها أحد ولا ينتفع بها، حتى تبلَى مِن وَطْءِ الأقدام، ومن الشمس والرياح والمطر. ويسمون تلك الثياب (اللقى)، قال الشاعر:

كَفَى حَزَنًا مَرِّي عَلَيْهِ كَأَنَّهُ لَقًى بَيْنَ أَيْدِي الطَّائِفِينَ حَرِيمُ

وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ قال ابن زيد: كانوا إذا جاؤوا البيت فطافوا به، حرمت عليهم ثيابهم التي طافوا فيها، فإن وجدوا مَنْ يُعيرهم ثيابًا، وإلا طافوا بالبيت عراة، فقال: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾.

***

قرناء الحجّ

ربما ربط الرجل يده بيد أخيه في الطواف يتقربان بذلك إلى الله تعالى، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فعن ابن عباس: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم مرّ وهو يطوف بالكعبة

---

[٤٤] نفس المصدر السابق.

[٤٥] أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي [ت نحو ٢٥٠ هـ]، «أخبار مكة - الأزرقي» «باب ما جاء في فتح الكعبة ومتى كانوا يفتحونها» (١/ ١٧٤).

بإنسان ربط يده إلى إنسان بسَيْرٍ أو بخيطٍ أو بشيء غير ذلك فقطعه النبي صلى الله عليه وسلم بيده، ثم قال: «قُدْهُ بيده»[٤٦]. قال العيني: «قيل: إن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أنهم يتقربون بمثله إلى الله تعالى»[٤٧].

وعن خليفة بن بِشر، عن أبيه بشر أنه أسلم، فردَّ عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- ماله وولده، ثم لقيه النبي -صلى الله عليه وسلم- فرآه هو وابنه طلقًا مقرونين بالحبل، فقال: «ما هذا يا بشر؟»، قال: حلفت لئن ردَّ الله عليَّ مالي وولدي لأحُجَّنّ بيت الله مقرونًا فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم الحبل فقطعه، وقال لهما: «حُجَّا؛ فإن هذا من الشيطان»[٤٨].

وأما صفتهم في الطواف فقد كانوا يطوفون في صفوف وهم يَعِجّون بالأناشيد ويُصَفِّرون.

***

بيت اللات وحرمه

لم يكن طواف العرب شيئًا يختصّ بالبيت الحرام؛ بل كانوا يطوفون بالرُّجُمات، وهي حجارة تجمع فتكون على شبه بيت مرتفع كالمنارة، وبالأصنام، والأنصاب.

وكانت لهم بيوت يضاهون بها البيت الحرام، ويحجون إليها، ويطوفون بها، ومن ذلك (اللات) كان بالطائف لثقيف على صخرة، وكانوا يسترون ذلك البيت ويضاهون به الكعبة. وكان له حجبة وكسوة، وكانوا يحرّمون واديه، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فهدماه[٤٩].

وكانوا في أسفارهم يتخيرون الأحجار فيعبدون أحسنها شكلًا ومنظرًا، فإذا وجد الرجل حجرًا خيرًا من حجرِه ألقى الأول وأخذ الآخر، وإذا لم يجدوا حجرًا جمعوا كومة من تراب ثم

---

[٤٦] أخرجه البخاري في صحيحه، «باب الكلام في الطواف» (٢/ ١٥٣).

[٤٧] بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥ هـ)، «عمدة القاري شرح صحيح البخاري»، «(باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك)» (٩/ ٢٦٤).

[٤٨] أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير للطبراني» «بشر أبو خليفة» (٢/ ٣٨). قال الهيثمي: فيه من لم أعرفه.

[٤٩] أبو جعفر، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)، «السنن التي كانت الجاهلية سنتها فبقّى الاسلام بعضها وأسقط بعضها»، «المحبر» (ص٣٠٩).

جاؤوا بشاة فحلبوها عليها ثم طافوا بها، وإذا رحلوا تركوها، وربما طافوا بذبائحهم التي يقربونها لآلهتهم، وبقبور السادات والأشراف منهم.

***

دعاء الجاهلية

كان أكثره بالدنيا وصلاحها، ولا يكادون يذكرون الآخرة؛ عن ابن عباس قال: «كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام وِلَادٍ حَسَنٍ، ويقول آخرون: اللهم أَكْثِر أموالنا، وأبناءنا، ومواشينا، وأَطِل بقاءنا، وأنزل علينا الغيث، وأنبت لنا المرعى، واصحَبْنا في سفرنا، وأعطنا الظَّفَر على عدوِّنا. ويأتي الرجل منهم فيقول: اللهم ارزقني إبلًا، اللهم ارزقني غنمًا، ولا يذكرون من أمر الآخرة شيئًا فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠][٥٠].

***

صلاة الجاهلية

حين رفع إبراهيم قواعد البيت دعا ربه أن يرزقه إقامة الصلاة وقبول الدعاء، ودعا ببعض ذلك لبعض ذريته فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

قال الزمخشري: وإنما بَعَّضَ؛ لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذرّيته كفار، وذلك قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، وقد كان ما توقعه إبراهيم عليه السلام، فإذا البيت الذي طهَّره لاستقبال المصلين الراكعين الساجدين، قد أَمَّهُ أناس لا يعرفون من الصلاة إلا التصفيق والصفير، ينفخ الرجل في يديه فيُصَفِّر، ويميل خده ويُصَفِّق، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[٥١].

---

[٥٠] بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥ هـ)، «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» «{ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار}» (١٨/ ١١٣).

[٥١] محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري [ت ٥٣٨ هـ]، «تفسير الكشاف - ومعه الانتصاف ومشاهد الإنصاف والكافي الشاف» «[سورة إبراهيم (١٤)، الآيات ٤٠ الى ٤١]» (٢/ ٥٦١).

السعي بين الصفا والمروة

كان مِن العرب مَن لا يسعى بينهما في حج ولا عمرة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان مَن أَهَلَّ لمناة...، لا يطوفون بين الصفا والمروة»[٥٢].

وعن قتادة قال: «كان حَيٌّ من تهامة في الجاهلية لا يسعون بينهما، فأخبرهم الله أنّ الصفا والمروة من شعائر الله»[٥٣].

وكان من العرب من يطوف بهما ويسعى بينهما غير أنهم قد جعلوا على الصفا صنمًا يقال له (إساف) وعلى المروة آخر يقال له (نائلة)، وهما صنمان من نحاس يستقبلان القبلة، وبينهما من الأصنام والآلهة ما لا يحصى.

أخرج ابن إسحاق عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: «ما زلنا نسمع أنَّ إسافًا ونائلةَ رجلٌ وامرأة مِن جُرْهُم فَجَرَا في الكعبة، فمُسِخَا حجرَين فوُضعا على الصّفا والمروة ليعتبر بهما الناس فلما طالت المُدَّة عُبِدَا من دون الله»[٥٤].

ويقال: صنمان وضعهما عمرو بن لُحَيّ على الصفا والمروة، وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة؛ فكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيمًا للصنمين ويتمسحون بهما قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما جاء الإسلام وظَهَر، قال المسلمون: يا رسول الله، لا نطوف بين الصفا والمروة؛ فإنه شركٌ كنا نفعله في الجاهلية، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قالت العلماء: نزلت هذه الآية في الفريقين كليهما، فيمن طَافَ وفي من لم يَطُف: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ

---

[٥٢] أخرجه الترمذي في الجامع، «باب: ومن سورة البقرة» (٥/ ٢٠٤).

[٥٣] أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)، «تفسير الطبري» «{إن الصفا والمروة من شعائر الله}» (٣/ ٢٢٤ ط التربية والتراث).

[٥٤] محمد بن إسحاق المطلبي الشهير بـ ابن إسحاق (ت ١٥١ هـ)، «سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي» «حفر زمزم من قبل عبد المطلب ابن هاشم.» (ص٢٣).

يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فأخبرهم الله أنّ الصفا والمروة من شعائر الله، وأن أهل الشرك كانوا يطوفون بهما كفرًا، وأنتم تَطوفون بهما إيمانًا[٥٥].

***

الحاجُّ والداجُّ في منى

كانت العرب لا ترى للتجار والأُجَراء والحمَّالين حجًّا، ويسمونهم (الدَّاجّ)، فكان هؤلاء الداجُّ ينزلون في الشق الأيسر من منى، وكان الحاجُّ ينزلون عند مسجد منى، لا يَتَّجِرون.

ويبدو أن الاعتقاد بعدم أهليّة هؤلاء للحج قد استمر بالناس إلى ما بعد ظهور الإسلام، فقد جاء رجل إلى عبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنَّا قوم نُكْرَى، فيزعمون أنه ليس لنا حَجّ! قال: ألستم تُحرِمون كما يحرمون، وتطوفون كما يطوفون، وترمون كما يرمون؟ قال: بلى! قال: فأنت حاجٌّ! جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عما سألت عنه، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨][٥٦].

***

أيام الفخر وليالي السِّباب

كان أهل الجاهلية إذا قضوا مناسكهم بمنًى قعدوا حِلَقًا فذكروا صنيعَ آبائهم في الجاهلية وفعالَهم، فيخطب خطيبهم ويُحدِّث محدثهم، فلا يزالون يتفاخرون بأنسابهم وأحسابهم، ويذكرون أيامهم في الجاهلية، فيقول أحدهم: كان أبي يطعم الطعام، ويقول الآخر: كان أبي يحمل الحَمَالات والديات، ويقول الآخر: كان أبي يضرب بالسيف، ويقول الآخر: كان أبي يجزُّ نواصي سادات القوم، فيمكثون على ذلك يومهم أجمع، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم.

وكان لكلّ قبيلة شعراؤها وخطباؤها فيقوم من كلّ بطن شاعر وخطيب، فيقول: منا فلان، ولنا يوم كذا وكذا، فلا يترك فيه شيئًا من الشرف إلا ذكَره، ثم يقول: مَن كان ينكر ما نقول،

---

[٥٥] أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)، «تفسير الطبري» «{إن الصفا والمروة من شعائر الله}» (٣/ ٢٢٤ ط التربية والتراث).

[٥٦] أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، «باب حج الأكرياء» (٤/ ٣٥٠).

أو له يوم كيومنا، أو له فخر مثل فخرنا، فليأتِ به. ثم يقوم الشاعر فينشد ما قيل فيهم من الشعر، فمن كان يفاخر تلك القبيلة، أو كان بينه وبينها منافرة، قام فذكر مثالب تلك القبيلة، وما فيها من المساوئ، وما هُجِيَت به من الشعر، ثم فخر هو بما فيه، فلا يزالون يومهم هذا يتفاخرون ويتهاجون ويتشاتمون، واشتهر ذلك عنهم حتى سُمِّي الشِّعْب الذي ينزلون فيه بشِعب السِّباب أو (صُفَيّ السِّبَاب)، وهو أكمة.

فلما جاء الله تعالى بالإسلام أمَرَهم أن يشتغلوا بذكر الله وأن يَدَعُوا ذكر الرجال فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[٥٧].

***

ليلة النَّفْر

كانوا يحرِّمون على أنفسهم أشياء ليلة النفر لا يَقرَبونها؛ فعن قتادة رضي الله عنه قال: «كان هذا الحي من العرب يسمُّون ليلة النَّفْر ليلة الصَّدَر، وكانوا لا يُعَرِّجون على كسير ولا ضالة، ولا لحاجة، ولا يطلبون فيها تجارة، ولا بيعًا؛ فأحلَّ الله ذلك كله للمؤمنين أن يُعَرِّجوا على حوائجهم، ويبتغوا من فضل الله، فقال جل وعز: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٥٨].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

[٥٧] أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي [ت نحو ٢٥٠ هـ]، «أخبار مكة - الأزرقي» «ذكر شق معلاة مكة اليماني وما فيه» (٢/ ٢٦٨).

[٥٨] نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي (٤٦١ - ٥٣٧ هـ)، «التيسير في التفسير - أبو حفص النسفي»، «سورة البقرة» (٣/ ٥).